إشَارَاتُ عَقِيدَةِ التَّوْحِيدِ فِي آيَاتِ الْقُرْآنِ الكَرِيمِ

د. عباس علي عبدالرضا
مدير عام مركز البحوث والدراسات
التربوية سابقًا - وزارة التربية

فحوى البحث

يتناول البحث تعاليم التوحيد عبر المدارس ذات الصلة بذلك وكما تناولها القرآن الكريم الذي كان هدفه الأسمى ترسيخ هذه العقيدة في النفوس لانها تنمّي القدرة على التفكير المجرد. كما توفر أدوات تساعد العقل البشري على تطوير الأفكار المجردة.

وقد اقتصر تقديم البحث على ما يعلَمُهُ الإسلام بدلاً مما لاتعلمه الأديان الأخرى. كما حاول السيد الباحث تقصي إشارات القرآن الكريم الى مفهوم التوحيد الذي يتبوّأ مكان الصدارة في العقيدة الاسلامية.

مقدمة:

يتبوأ مفهوم التوحيد مكان الصدارة في العقيدة الإسلامية. وقد لاحظ العقل البشري الطبيعة، وآمن بوجود بعض قواها الخارقة. على أمل توضيح سر الطبيعة، وقد أوجد الإنسان بعض الآلهة، وانتهى به المطاف إلى الوثنية. وقد دعا النبي إبراهيم عليه السلام في البداية إلى عبادة إله واحد، وحمل الدعوة بعده النبي موسى عليه السلام. وقد آمن أتباعه بالله الواحد، كما أن الكتاب السماوي التوراة الذي أوحي به إلى النبي موسى عليه السلام دافع عن فكرة الإله الواحد، وقد أيدت المسيحية فيما بعد فكرة الإله الواحد، ولكنها لجأت أيضا إلى فكرة الثالوث، التي نتج عنها الاعتقاد بان المسيح ابن الله.

أما في الفلسفة، فيشير الاعتقاد بإلهٍ واحد إلى عقيدة التوحيد. وفي العقيدة الإسلامية، يقول مفهوم التوحيد فعلا بالإله الواحد، بيد أنه يضع في الوقت نفسه محدداتٍ على معتنقيه من أجل أن لا يبتعدوا، أو أن يشركوا عن جهل، ولعل أحدهم يقول بأن التوحيد في تعاليم النبي إبراهيم عليه السلام، وفي ثنايا التوراة، وفي نصوص الإنجيل لم يُفهم من لدن أتباع هذه الديانات بهذه الطريقة. وبوضعه المحددات على أنشطة أتباعه، أصبح الإسلام قادرا على إحياء فكرة التوحيد فيما بينهم.

إن طبيعة التفكير البشري التأثر بفكرة واحدة في خضم سلسلة من الأفكار. وإن للتوحيد تأثيره في الفكر البشري، إذ ينمي القدرة على التفكير المجرد. كما يوفر أدوات تساعد العقل البشري على تطوير الأفكار المجردة. ومتى ما استُكمِلَ ذلك، فإن الأديان الأخرى ربما ستتمكن من تعديل تعاليمها لجني ثمار التوحيد.

يتناول البحث تعاليم التوحيد عبر المدارس ذات الصلة بذلك، كما تناولها القران الكريم. وقد اقتصر تقديم البحث على ما يعلمه الإسلام بدلا عما لا تعلمه الأديان الأخرى. وهناك إشارات عدة في القران الكريم إلى مفهوم التوحيد.

ويمكن تجميع هذه الإشارات في:

١. سورة الفاتحة، التي تناولت فكرة التوحيد للبشر عموماً، وللمسلمين

على وجه الخصوص.

٢. الإشارات الموجودة في سورة الإخلاص، التي تشكل جوهر عقيدة التوحيد الخالص، المرتبة بشكل منتظم.

٣. أخيرا، فان هذه الإشارات يمكن العثور عليها موزعة في ثنايا آيات القران الكريم، وهي تحفظ ما يمثل المُذكِّر الثابت لفكرة التوحيد، كم أنها تقارن فكرة الإيمان مع أولئك الذين عملوا على تكييف الأفكار الأخرى.

المبحث الأول:

١. سورة الفاتحة:

تتناول هذه السورة فكرة التوحيد للبشر عموماً، وللمسلمين على وجه الخصوص. في هذا المقطع، سيقوم الباحث باستعراض وجهات نظر بعض المفسرين المسلمين البارزين، التي تدعم الدعوة بأن سورة الفاتحة تقود إلى التوحيد والإخلاص وهو التوحيد الخالص أو «التوحيد الذي لا شائبة فيه».

لهذا السبب، هناك أربعة من المفسرين المسلمين البارزين من خلفيات مختلفة، اختيرَت تفاسيرهم من أجل توفير طيف واسع من الآراء في هذا الجانب. أولها تفسير ابن عباس[١] الذي يبدأ تاريخه في القرن الأول الإسلامي؛ والثاني هو جامع البيان في تأويل آي القران لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري[٢]، والثالث هو التبيان

(١) عبد الله بن عباس ابن عبد المطلب ابن هاشم، ولد في العام ٦١٩ ميلادي، سمي أيضا بحبر الأمة أو البحر. كان ابن عباس من اقرب صحابة النبي محمدﷺ ومن أعظم علماء صدر الإسلام، وأول مفسر للقران، كما اشتهر بمعرفته للأحاديث القدسية والنبوية، فضلا عن تفسيره القران الكريم. في مطلع شبابه قام بجمع المعلومات التي تتعلق بأقوال النبي العظيم وأفعاله من بقية الصحابة، وأعطى دروساً في تفسير القران، وكذلك تعليقاته التي جمعت لاحقاً. اجبر ابن عباس على المغادرة إلى الطائف في عهد يزيد ابن معاوية ومات هناك في العام ٦٨٧/ ٦٨٨ بعد الميلاد. أنظر موسوعة بريتانيكا، ١٩٩٩/ ٢٠٠٠.

(٢) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، ولد في طبرستان شمال فارس في ٢٢٤ ه/ ٨٣٩ م وتوفي في بغداد في ٣١٠ هـ/ ٩٢٣م. كرس حياته للنشاطات العلمية وفي جمع الأحاديث النبوية من الأجيال السابقة، ذاع صيته في البداية من خلال أعماله في مجال التاريخ والقران، تاريخ الرسل والملوك

في تفسير القران لمحمد بن الحسن بن علي أبو جعفر الطوسي[٣]، والرابع هو التفسير الكبير لفخر الدين الرازي[٤].

ينتمي هؤلاء المفسرون للحقبة المثالية للإسلام[٥] وان تفاسيرهم للآيتين ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ و ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ من سورة الفاتحة، توفر من وجهة نظر الباحث ملخصاً جيداً لفكرة عقيدة التوحيد في الإسلام، إلا أنه يمكن القول، إن هناك كثيراً من الآيات التي تتعلق بالتوحيد ستؤخذ بعين الاعتبار في هذه الدراسة، من أجل فهم أفضل للفكرة.

لقد اشترك ابن عباس مع المفسرين التقليديين في تفسير (الحمد لله)[٦]، وتعني

وفي شرحه الشامل في تفسير آيات القران أو (جامع البيان في تفسير اي القران). انظر رودي باريت «الطبري الموسوعة الأولى للإسلام ١٩١٣ -١٩٣٩»، ١٩٨٧)٧: ٥٧٨ -٧٩).

(٣) ولد الطوسي في طوس العام ٣٨٥هـ/ ٩٩٥م. كان طالباً عند أبي عبد الله محمد بن محمد النعمان، المعروف بالمفيد، من فقهاء الشيعة البارزين إلى جانب الشريف المرتضى، وقد أصبح مرجعاً للشيعة في بغداد وقام بتدريس كثير من الطلبة هناك، عينه الخليفة العباسي القائم بأمر الله (٤٢٢ هـ/ ١٠٣١م-٤٦٧ هـ/ ١٠٧٥ م) بمنصب متحدث وهو منصب تشريفي لا يعطى إلا للعالم الذي ليس له منازع. انظر جين ديمن، ماكوليفي، المسيحيون في القران: تحليل للمفسرين القدامى والمعاصرين. جامعة كامبرج، ١٩٩١. ٤٥ -٤٩.

(٤) ولد أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسين فخر الدين الرازي ١١٤٩م في الري في إيران وتوفي في ١٢٠٩ م بالقرب من حيرات، خوارزم، كان من المنظرين البارعين وعالم القرن بعد الغزالي، جمع احد أهم التعليقات الموثوقة عن القران الكريم وعن تاريخ الإسلام، كان يذهب غالباً إلى اقتباس آراء من سبقوه كما انه تبنى وجهات نظر معارضيه بشكل مفصل قبل أن يفندها، انظر بريتانيكا على شبكة الانترنت.

(٥) إن تصنيف التفاسير إلى عهدين تقليدي، وآخر معاصر مبني على التقسيم المشترك الذي وضعه بعض العلماء الذي يصف كل تفسير من مدة الحكم الرسمي للإسلام حتى العام ١٥٠٠ بعد الميلاد بأنه تقليدي، أما بعد العام ١٥٠٠ بعد الميلاد حتى يومنا الحاضر فيصفه بالمعاصر.

(٦) إن استعمال (ألـ) التعريف بوصفها بادئه للحمد (وتعني الانتماء إلى أو طبقا لـ) تدل ضمنياً وبشكل واضح بأن الحمد لا ينبغي إلا له، أو تبسيط الحمد، الحمد بإحساسها الصادق، «ينتمي إلى» أو أنها (لله) وحده. انظر القاموس عربي -انكليزي.

كل الشكر لله وأن الوحدانية والإلوهية لا يمكن أن تقال إلا لله، وهو الواحد، وأن الكل يتوكل عليه، وأنه لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤاً احد[٧]. وفي التركيز في هاتين الصفتين الوحدانية، والإلوهية، يجزم ابن عباس بأن الله واحد خلق الكون كله، فإنه وحده المسيطر عليه، وهو يسمح بحدوث الأشياء، لذلك فهو مالك كل شيء، لهذا السبب، من الضروري في المقام الأول أن يعود كل (الحمد) إلى الله ذي القدرة الواسعة، سيد الأكوان، وأن مثل هذا التفسير يعبر عن التوحيد عبر الإيمان بإلهٍ واحد؛ لتمييزها عن الشرك بالله، والاعتقاد بوجود كثير من الآلهة، فضلاً عن عقيدة الثالوث. وفي معرض تعليقه على الآية الخامسة من سورة الفاتحة، يوضح ابن عباس بان (إياك نعبد) تعني: لك نوحد، "أنت تفعل ونحن لك نطيع"، وأن (إياك نستعين) تعني "نسألك وحدك إلهنا ونطلب العون لكي نعبدك ونضع كل ثقتنا فيك من أجل مواصلة العبادة والطاعة". وهنا فإن ابن عباس أراد التأكيد، بأنه ينبغي على المسلمين أن يتعهدوا بالخضوع الكلي، وبطلب العون من الله وحده فقط.

أما الطبري (٨٣٩ م -٩٢٣ م)، فقد بدأ تفسيره سورة الفاتحة عبر التأكيد بأنها تمثل الأصل للكتب المقدسة نظراً لاستيعابها نظرية اللاهوت، واليوم الآخر، والوحي الإلهي، وأنها طبقاً لوجهة نظره، تُعَدُ محصلةً لما تتضمنه هذه الكتب من تعاليم، لأن جوهر المعرفة الحقَّة يتلخص في فهم فكرة ((أزل الربوبية))، أي سمو الربوبية، وكذلك فكرة "العبودية" وأن التواضع والعبودية لا تَجبانِ إلا لله العظيم وليس لمخلوقاته.

وواقعاً، أن الإنسان حينما يكون أكثر معرفةً، وقرباً من عظمة الله، فإنه لن يخضع أبداً لأحدٍ غيرَ الله. لهذا السبب، استنتج الطبري، أن سبب افتتاح سورة الفاتحة بعبارة (الحمد لله) تدعم دعواه في نقل حديث النبي الأعظم بخصوص أهمية سورة الفاتحة، يقول ﷺ: "والذي نفسي

(٧) ابن عباس (٦١٩ -٦٨٨)، تنوير المقباس من تفسير ابن عباس (بيروت: دار الكتب العلمية)، ص٢.

بيده ما نزلت في التوراة والإنجيل، ولا في الزبور مثل هذه السورة". بعدها نقل الطبري روايات أخرى لابن عباس عن الشعبي، قال: "سمعت عبد الله بن عباس يقول إن القرآن أصل الكتب المقدسة، وأن أصل القرآن سورة الفاتحة".

لذلك يذهب الطبري إلى القول، باختصار إن سورة الفاتحة كانت حدثاً طيباً للبشرية بوصفها وسيلة لإثبات أن الله العظيم هو الخالق، والأعلى مقاماً، والحكيم العليم، فهو الوحيد الذي يستحق عبارات الحمد، والثناء، والتقديس.

ومن أجل قياس قيمة التوحيد لكل فرد، فإن الآية الخامسة من سورة الفاتحة لها دور تؤديه.

فالطبري، على سبيل المثال، يفسر (إياك نعبد وإياك نستعين) بأنها تشير إلى بعض القضايا الجوهرية، التي وُظفت لتأكيد أن" العبودية" تشكل جزءاً من الحياة البشرية. وأن هذه القضايا من وجهة نظر الطبري من نوعين، وهي الأفعال وآثارها، فالأفعال أساساً تتمثل في عنصرين؛ العنصر الأول، يتمثل في أداء العبادات، طبقا لقول الله تعالى: إياك نعبد، بينما يبحث العنصر الثاني عن العون من الله في إتمام العبادة في قوله (إياك نستعين). وهذا يعني أنه استنتج بأنه بدون الاستعانة لا يمكن للعبادة أن تؤدى. ثم يقول الطبري: إن آثار هذه الأفعال تجعل من الممكن للشخص أن يتلقى الهداية للصراط المستقيم، مع ذلك فان المنطق من معرفة الربوبية طبقاً للطبري، مؤداه الاعتقاد بإلهٍ واحد وباليوم الآخر، أي جعل الإنسان موحِداً، وهو المطلب الأساسي لعقيدة التوحيد.

أما الطوسي وهو من المفسرين البارزين بعد ابن عباس والطبري، وهو يوافق بشكل أساسي على تفاسيرهم، فهو يؤكد غالباً التفاسير نفسها للآيتين (الحمد لله) و(إياك نعبد)، لكنه عدَ كلمة "الحمد" نوعاً من التعبير أو، معرفة البشر بنعمة الله. لذلك، فإن العبارة كاملةً (الحمد لله) تعطي معنى 'الامتنان والشكر الخالص' الذي يختلف عن الشكر الذي يتداوله بني البشر فيما بينهم. وهذا ببساطة (والكلام

للطوسي) لأن الله العظيم هو "المنعم" يمنح جميع أنواع النعم سواء في الدنيا أو في الآخرة، ولأن الله هو الرحمن الرحيم.

لذلك يقرر الطوسي، بأن "الحمد لا ينبغي إلا لله" وحده. وقد أسس وجهة نظره هذه على استنتاج مفاده أن "الحمد لله" تؤكد الاعتقاد بوحدة الله، كما تُعلِنُ منذ الأزل، بأنه لا اله إلا الله، وان الشكر لا ينبغي إلا له، وتلكم هي الفكرة، وبعبارة أخرى، هي جوهر التوحيد.

حينما ينظر الطوسي إلى الجزء الأول من الآية الخامسة "إياك نعبد" في تفسيره، يصرح بأن بعد كلمة الحمد ومعرفة صفة الله، ينبغي أن يكون هناك ميثاق بالخضوع الكلي لله العظيم عبر طلب العون منه، من أجل عبادته بإيمان، وإخلاص، وهذا هو المعنى الحقيقي "للعبادة" وأكثر من ذلك، فان هذه الآية من وجهة نظر الطوسي، ترشد الإنسان إلى أن لا يعبد غير الله، وأن لا يطلب العون إلا منه وحده.

أخيرا، يرى الطوسي، أن هاتين الآيتين تشدان الانتباه إلى جوهر سورة الفاتحة، لأن العبادة والاستعانة، تمثلان تأكيد وحدة الله، وتحثان على طاعة رسوله، النبي الأعظم.

من هنا، ربما نستنتج أن هاتين الآيتين، بناءاً على التعليقات السابقة، تؤكدان أن الإنسان لا ينبغي أن يعبد أحداً إلا الله، وعليه طلب العون من الله العظيم. وهذا يمثل إعلانا واضحاً للتوحيد، كما يُعد في الوقت نفسه، تحذيراً واضحاً من الشرك.

يدعي فخر الدين الرازي (١١٤٩م-١٢٠٩م) في تفسيره الكبير، أن سورة الفاتحة بمجملها تتضمن أسرارا عقلية مقدسة، وأن بعض هذه الأسرار يمكن اكتشافها في عبارتي "الحمدُ" و "إياك نعبدُ". وعلى ما يبدو فان الرازي قد توصل إلى هذا الاستنتاج بناءً على تفسير ابن عباس لهاتين العبارتين، كما ادعى بأن المعنى الخفي وراء عبارة "الحمدُ" يتضمن عنصرين الأول هو وجود الإله، والثاني أن الله هو استحقاق جلي.

إن الدليل الذي بنى الرازي عليه دعواه، أنه طالما أن الله هو سيد الأكوان، فهو الوحيد الذي يستحق الحمد جميعه،

لأنه هو الرحمن الرحيم، وهو مالك اليوم الآخر. ثم عَدَّ الرازي عبارة "العالم المحسوس" التي تشمل الأرض، والقمر، والشمس، والنجوم، والسماء، وباقي المخلوقات، جميعها، تشكل علامات للذات المقدس لله العظيم. وأن هذا العالم دليل مثالي للحاجة إليه للسيطرة عليه، ولإدارة شؤونه، كما قال سبحانه العظيم في كتابه المقدس، القران الكريم:

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾[٨].

في إسناد آخر لدعوى أن سورة الفاتحة هي مصدر القرآن، أما بقية السور فليست إلا جدولاً يتدفق منها، ويستعرض الرازي العبارة نفسها (الحمد لله) واستعمالها في الجمل الافتتاحية للسور الأربع في القران. وهي:

أ. سورة الأنعام: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾.

ب. سورة الكهف: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ ﴾.

ج. سورة سبأ: -﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾.

د. سورة فاطر: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا ﴾.

ويعتزم الرازي من خلال ذكره الآيات السابقة أن يظهر لماذا "الحمد لله". فهو يصرح بأن الكلمات التي تلي "الحمد لله" في كل حالة من الحالات السابقة ربما يمكن اعتبار الغرض منها تأصيل ما يأتي في الجزء الثاني من الآية الأولى من سورة الفاتحة، اعني بذلك "رب العالمين" على سبيل المثال يقول الله تعالى في الآية الأولى من سورة الأنعام، بعد ذكر الحمد لله:

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾.

وهذا، بعبارة أخرى يسوغ نعت رب العالمين كونها أجزاء من العوالم (العالمين)، وأن الله هو سيدها، وهي تحت سيطرته وقدرته.

السورة اللاحقة، وهي سورة الكهف[٩]، تبدأ بالكلمات نفسها «الحمد

(٨) القران الكريم: (١٥: ٤٤).

(٩) كما نرى أن السورة التي تأتي قبل الكهف،

لله» وتتبعها كلمات (الـذي أنـزلَ على عـبـدهِ الـكـتـابَ)، الـتي تعني بحسب رأي الـرازي، أن الله هو وحـده الذي منح الإلهـام، والوحي الحقيقي لرسله المقدسين، وانه بفضل الله ورحمته، تُحققُ روح الإنسـان التقدم التدريجي باتجاه الأمـام. التي يمكن عَـدَّهـا أحـد أهم واجبات الرب الذي يُعَدُ مسؤولا عن تزويد الناس بالتنشئة الطيبة، وتدريبهم ليكونوا قادرين على اتباع أوامره. وهذا هو السبب في خلقه للظلام والنور، من أجـل مساعدة الإنسـان أن يرتقي من المراتب الدنيا إلى المراتب العليا للمعرفة، وأن يكون قادراً على الوصول إلى الكمال النسبي. لذلك طبقاً للرازي فان الجزء الثاني من الآية الأولى من سورة الكهف لها أصلها وبشكل واضح في الآية الأولى من سورة الفاتحة.

في سـورة سبأ فـان الجـزء الـذي يلي «الحمد لله» هو: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ هو صدى للتصريح في الآية التي تسبقها بان الله العظيم هو خالق السماوات والأرض، وجاعل الظلمات والنور، وهذا ما جاء في الكتب التي انزلها على رسله. لذلك فان مسؤولية الإنسان وجميع المخلوقات بيان رحمته وسلطانه، وكذلك الخير والصدق، سيما وان جميع الموجودات في السماوات والأرض تعود إليه. وهنالك نقطة تؤكد بقوة بان سلطانه يحيط بكل شيء، ويمتد عبر الزمان والفضاء، هنا وفي كل مكان، الآن وإلى الأبـد. وهكذا، فان الحمد لا ينبغي إلا له. وبعبارة أخرى طبقا لتفسير الرازي، فان الله العظيم هو المالك المطلق للعالمين، لذلك فـان الجـزء الثاني للآية الأولى من هذه السورة يمكن القول بأنه له الأصل نفسه في الجزء الثاني في الجزء الأول من سورة الفاتحة. أما سورة فاطر فإنها تظهر بان الإنسان حينما يحمد الله فهذا يعني بأنه يفهم ويتبادر إلى ذهنه، بأن عظمة الله وسلطانه قد سخرتا لمصلحة الخلق. في الجزء الثاني من الآية الأولى يقول سبحانه:

تسمى سورة الإسراء تبدأ بالتغني بعظمة الله والثناء عليه تنتهي بنفس الملاحظة التي تختم الحجة والبرهان ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾.

﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ ذلك بأن الله هو رب العالمين، لذا من الواضح بأن الآية لها أصلها في سورة الفاتحة. أخيراً يلخص الرازي دعواه بالقول "إن جميع الأسرار العجيبة، والألطاف الإلهية مجتمعة في عبارة "الحمد لله" وربما تشكل جميعها دليلاً واضحاً على وجود الخالق قبل أي مخلوق آخر، وأن الله هو الواحد الأحد الذي نعبده، ونطلب منه العون والرزق".

وفي تفسير الآية الخامسة من سورة الفاتحة، يتفق الرازي مع بقية المفسرين المسلمين، ويضيف بشكل بسيط إلى آرائهم شرحا بسيطا، فبحسب رأيه، إن الإنسان يقسم إلى جسم وروح، إذ يُعتقد بان الجسم هو مجرد آلة للروح، التي تتيح تحسينات لاحقة تنعكس على الجسم. لذا فان ممارسة العبادة يُعدُ من أفضل الأعمال التي يمكن توفيرها بوساطة الجسم من أجل الروح.

مع ذلك، إذا قرر الجسم أن يعبد الله وحده، فان ذلك يشكل الخطوة الأولى لسعادة الروح، وهذا هو الغرض من الآية "إياكَ نَعبدُ وإياكَ نَستعين" وطلب العون والرزق من الله وحده.

في متابعة لنظرة المعلقين التقليديين، يتضح أن عقيدة التوحيد تبعث برسائل مهمة في سورة الفاتحة، لا سيما في آياتها الأولى والخامسة.

٢. سورة الإخلاص والتوحيد:

قبل أن نتفحص الآيات الأخرى التي تقود إلى التوحيد في القران، يجدر القول، أن سورة الإخلاص من التعابير الرئيسة للاعتقاد بتلك الفكرة. وفي تسلسل السور في القران الكريم، فان سورة الإخلاص تأتي في التسلسل (١١٢)، قريبة من نهايات القران الكريم وبحسب الترتيب الزمني، يقال بأنها سورة مكية، تعني كلمة "الإخلاص" (صفاء الإيمان). تتعامل هذه السورة بشكل حصري مع التوحيد وبسبب محتوياتها تسمى أيضا بسورة التوحيد. وبكلمة بسيطة، إن طبيعة الله وصفت بأفضل عبارة، إنها تقدم عوناً كبيراً لفهم فكرة التوحيد في الإسلام:

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾[10].

أ. الوحدانية، الله سبحانه وتعالى هو الواحد الأحد الذي يجب أن يعبده المسلمين.

ب. الله قريب من عباده، يهتم بهم، ووجودهم مدعاة لحبه.

ج. الله ليس له بداية ولا نهاية، فهو مطلق، لا يحده الزمان، ولا المكان، ولا الأحوال، وهو الحقيقة المجردة.

د. لا يعتقد المسلمون بوجود ولد، أو أب لله تبارك وتعالى.

٣. باقي آيات القران التي تتعاطى مع فكرة التوحيد:

إن الله تعالى يحث الإنسان على البحث عن أفضل الحديث:

﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[11].

ثم يصف أفضل الحديث بأنه الذي ينسب إلى التوحيد بالعقيدة والفعل:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[12].

يعني هذا إن من يوظف الحديث يكون مدعاةً لاهتمامنا إذا ما أُسندَ بثلاث حقائق:

١. أن يدعوا الجميع لحقيقة الخالق، مظهرا أن تلك الأفكار لا تقتصر عليه وحده.

٢. إن كل فعل من أفعاله يدل على الخير، مبينا أنه لا يوجد اختلاف بين خطابه وعمله.

٣. أن يسخر نفسه كليا لإرادة الله، مظهرا انه تجسيد كامل للإسلام، فإذا كان الحديث خلواً من التأثير، عندئذ يحرم إتباعه.

كان النبي محمد ﷺ أول مسلم، بالنظر إلى إدراكه الحسي لفكرة التوحيد، لذا يُعَدُ حديثه أفضل من أي حديث آخر لنبي البشر:

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾

(١٠) القران الكريم: ١١٢.

(١١) (٣٩: ١٨ القران الكريم).

(١٢) (٤١: ٣٣ القران الكريم).

﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[١٣].

فعلى وفق هذا المقام دعا القرآن الإنسان إلى إتباع أحسن الحديث:

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾[١٤].

تُعَدُ الشهادة بأن لا اله إلا الله في الإسلام جوهر الإيمان، فالله هو الخالق وحده الذي منح كل شيء للإنسانية، وهو المسبب المطلق لكل حدث، وفي النهاية، هو الأول والآخر، بناءاً على هذه الفكرة فان المعرفة والتعاليم الدينية جميعها تشير إلى ما يأتي[١٥]:

أ. المبدأ.

ب. المعاد.

ج. الطريق.

إذ يُعَدُ ما ذكر آنفا من أصول الدين. مع ذلك، فإن المبدأ الأساسي في الإسلام هو التوحيد، في حين أن النهاية هي المعاد، والطريق بينهما هو الرسالة الإلهية، إذ تُعَدُّ النبوة والوحي مصداقاً لها.

يقول الإمام علي عليه السلام:

رَحِمَ اللهُ امرءاً عَرفَ مِن أينَ؟. والى أينَ؟. وفي أين[١٦]؟.

وهذا يعني «من أين» كانت بدايته، و «إلى أين» يذهب، و«أي طريق» عليه أن يسلك؟.

وهذا يعطينا انطباعا أنه لا يوجد «طريق» بين «المبدأ» وبين «النهاية» سيعطي السعادة الدائمة في كلا الدارين الحاضر والآخر، ولا يمكن لأي مبدأ أن يحمي الإنسان من عذاب الله.

يشرح الإمام علي فكرة التوحيد في معرض تفسيره سورة الإخلاص بالقول:

[[لَمْ يُولَدْ سُبْحَانَهُ فَيَكُونَ فِي الْعِزِّ مُشَارَكاً وَلَمْ يَلِدْ فَيَكُونَ مَوْرُوثاً هَالِكاً وَلَمْ يَتَقَدَّمْهُ وَقْتٌ وَلَا زَمَانٌ وَلَمْ يَتَعَاوَرْهُ زِيَادَةٌ وَلَا نُقْصَانٌ بَلْ ظَهَرَ لِلْعُقُولِ بِمَا أَرَانَا مِنْ عَلَامَاتِ التَّدْبِيرِ الْمُتْقَنِ وَالْقَضَاءِ الْمُبْرَمِ فَمِنْ

(١٣) (٦: ١٦٢ -١٦٣ القران الكريم).
(١٤) (٣٩: ٢٣ القران الكريم).
(١٥) جواد الاملي (١٩٩٤): «التوحيد في القران». بيروت: دار الصفوة.
(١٦) (نهج البلاغة للإمام علي -صبحي الصالح/ حكمة ١٤٧هـ).

شَوَاهِدِ خَلْقِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ مُوَطَّدَاتٍ بِلَا عَمَدٍ قَائِمَاتٍ بِلَا سَنَدٍ... وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الْكَائِنِ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ كُرْسِيٌّ أَوْ عَرْشٌ أَوْ سَمَاءٌ أَوْ أَرْضٌ أَوْ جَانٌّ أَوْ إِنْسٌ لَا يُدْرَكُ بِوَهْمٍ وَلَا يُقَدَّرُ بِفَهْمٍ وَلَا يَشْغَلُهُ سَائِلٌ وَلَا يَنْقُصُهُ نَائِلٌ وَلَا يَنْظُرُ بِعَيْنٍ وَلَا يُحَدُّ بِأَيْنٍ وَلَا يُوصَفُ بِالْأَزْوَاجِ وَلَا يُخْلَقُ بِعِلَاجٍ وَلَا يُدْرَكُ بِالْحَوَاسِّ وَلَا يُقَاسُ بِالنَّاسِ الَّذِي كَلَّمَ مُوسَى تَكْلِيماً وَأَرَاهُ مِنْ آيَاتِهِ عَظِيماً بِلَا جَوَارِحَ وَلَا أَدَوَاتٍ وَلَا نُطْقٍ وَلَا لَهَوَاتٍ]][17].

المبحث الثاني:

الدعوة العامة لعقيدة التوحيد

أ- الهداية إلى التوحيد في القران:

وصف الله سبحانه وتعالى كتابه الكريم بالحكمة وانه يستحق جميع المدح والثناء: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[18].

إن الوحي الإلهي على مر العصور "واحد". ويؤكد هذا الكتاب، ويتم، ويشرح "وحدانية" الوحي الحق الذي أرسل من اله الحق على مر الدهور[19]، هذا الكتاب الكريم، الذي جلب الانتباه إلى تعاليم الدين (التوحيد، والمعاد، وقواعد العيش) التي تغطي طيفاً واسعاً من الموضوعات، كما تتضمن رسالة مفادها أن لا شك في: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[20].

يتمتع القران العظيم بمجموعة من الصفات الخاصة التي ينفرد بها دون غيره منها ما يأتي:

١. إنه الكلمة الحق من الله، لم تُبتدع بل أُظهرت لمنفعة جميع بني البشر:

﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴾[21].

٢. إنه شامل:

﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ﴾[22].

(١٧) نهج البلاغة، المختار من كلام أمير المؤمنين عليه السلام، لجامعة الشريف الرضي محمد بن الحسين بن موسى (ت٤٠٦ هـ)، تحقيق السيد هاشم الميلاني، الناشر: العتبة العلوية المقدسة، النجف الأشرف -العراق، ٢٠١١ م، خطبة ١٨٢: ٣٢٣.

(١٨) القران: (٢: ٢).

(١٩) الصدر، محمد باقر (١٩٨٠)، التفسير الموضوعي للقران، بيروت: دار الأندلس.

(٢٠) القران الكريم: (١٥: ٩).

(٢١) القران الكريم (٥: ١٥).

(٢٢) القران الكريم (٦: ٣٨).

٣. أنزله الله بجميع أوامره، مبينا بالتحديد الحلال والحرام:

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾[٢٣].

٤. أكمل الله دينه لجميع البشر بوحي القران:

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾[٢٤].

٥. أوحي به لإعادة بناء مرتكزات العبادة الحَقَّة لله وحده، من دون شريك له:

﴿ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾[٢٥].

٦. يشتمل القرآن على مبادئ العيش المتكامل لتطبيقها في كل ميادين الحياة، سواء أكانت الروحية، أم الفكرية، أم السياسية، أم الاجتماعية، أم الاقتصادية، التي لا تختص بزمان، أو مكان، أو أمةٍ بعينها.

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾[٢٦].

٧. إن الله العظيم قد أخذ على عاتقه مهمة حفظ القران إلى الأبد، بشكل تام، وكما قال في الكتاب الكريم:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[٢٧].

لذلك تشهد الآيات القرآنية بان الله العظيم واحد ليس له قرين، ولم يتخذ له شريكا في الملك، أو شبيهاً، أو ولداً، أو بنتاً، أو قريباً.

ب. دعوة القران أهل الكتاب للتوحيد الخالص:

قال الله العظيم في كتابه الكريم:

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾[٢٨].

أختلف المفسرون في تفسيرهم

(٢٣) القران الكريم (٥٩: ٧).
(٢٤) القران الكريم (٥: ٣).
(٢٥) القران الكريم (١١: ١ -٢).
(٢٦) القران الكريم (١٧: ٩).
(٢٧) القران الكريم (١٥: ٩).
(٢٨) القران الكريم (٣: ٦٤).

هذه الآية، بشكل واضح، آخذين بعين الاعتبار بعض القضايا ليس أقلها هوية "أهل الكتاب" التي تناولتها السورة. بينما يفهم البعض مصطلح أهل الكتاب بأنهم اليهود، يعتقد البعض الآخر أنهم النصارى. وفي السياق نفسه تعتقد مجموعة ثالثة بأن المصطلح يشير إلى كلا المجتمعين الدينيين اللذين دعاهما القرآن لإعتناق عقيدة التوحيد الخالص، على سبيل المثال، يشرح الطبري في تفسيره هذه الآية بأن أهل الكتاب يراد بها أهل التوراة والإنجيل[٢٩].

اتفق المفسرون بشكل أساسي بعد الطبري على تفسيره، الطوسي على سبيل المثال، عرض ثلاثة تفاسير بديلة لعبارة «أهل الكتاب» يعني يهود المدينة ونصارى نجران الذين يقدسون زعماءهم ورهبانهم ومجموع كلا الفئتين[٣٠]، وقد وافق الزمخشري[٣١] أيضا على هذا التفسير[٣٢] بأن كلمة سواء هي الكلمة نفسها التي يتفق عليها التوراة والإنجيل والقرآن[٣٣]. فضلا عن ذلك فقد فسر الدعوة إلى عبادة الله الحق وحده من دون شريك بوصفها دعوة لتجنب تسمية عُزير أو عيسى

(٢٩) الطبري، جامع البيان، ٦: ٤٨٣.

(٣٠) الطوسي محمد بن حسن بن علي أبو جعفر، التبيان في تفسير القران، الجزء العاشر، نجف، المطبعة العالمية ١٣٧٦/ ١٩٥٧، ٢: ٤٨٨.

(٣١) ولد الزمخشري في ٤٧٦/ ١٠٧٥ في محافظة خوارزم ودرس في بخارى، سمرقند، وبغداد، ومكة، انظر يوسف بقاعي، شرح مقامات الزمخشري (بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٩٨١) ٥. بعد حصوله على شهادة في الحديث في بغداد انتقل إلى مكة حيث تولى التدريس في هذه المدينة لمدة ليست بالقصيرة مكنته من اكتساب لقب جار الله. انظر N. B. MacGuckin De Slane ترجمة قاموس السير لابن خلكان (باريس، صندوق تنمية الترجمة الشرقية لبريطانيا وايرلندا ١٨٤٢) ٣: ٣٣٢. يعترف فيها بسمو اللغة العربية، أصبح كتابه عن اللغة العربية ' المفصل ' معروفا بعرضه الواضح والشامل للقواعد النحوية. انظر: Andrew Rippin، الزمخشري، موسوعة الأديان، ١٥: ٥٥٤/ ٥٥.

(٣٢) الزمخشري، أبو القاسم محمد بن عمر، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ١: ٣٧٠.

(٣٣) الزمخشري، الكشاف، ١: ٣٧١.

بوصفهما ابني الله[٣٤] لأنهما مجرد بشر. وكذلك فَهْم عبارة «لا يتخذ بعضُنا بعضاً أرباباً من دون الله» وهذا تحذير لأهل الكتاب أن لايطيعوا زعماءهم لا سيما قوانينهم وتحريماتهم المبتدعة مقابل قوانين الله[٣٥].

يفسر محمد عبده[٣٦] في تفسير المنار[٣٧] هذه الآية بأسلوب واسع، مع ذلك فهو مهتم بشكل أكبر بمناقشة تطبيقها لفكرة التوحيد بدلا عن مصطلح أهل الكتاب نفسه، من هنا فهو يركز في نوعين من التوحيد وهما: وحدانية الإلوهية[٣٨]، ووحدانية الربوبية[٣٩]، ويصرح بأن أبناء الله موسى وعيسى عليهما السلام مثل محمد صلى الله عليه وآله حثوا الناس على عبادة الله وحده، وتمثل من وجهة نظره الرسالة الأصلية لجميع الأنبياء، وعلى أي حال فإن المسيحيين الذين يعتقدون بأن تعاليم قادتهم كانت لا تختلف عن تعاليم الله، وأنه من الممكن أن تغفر خطاياهم، وبذلك فقد أُسيءَ تفسير هذه الوصية المثلى[٤٠]، ويبين عبده بان كلا المفهومين يُعَدان انحرافا يحتاج إلى التصحيح، ومن هنا فإن هنالك حاجة إلى أن يعود اليهود والنصارى إلى كلمة سواء، بمعنى الوصول إلى مفهوم أساسي مشترك مع المسلمين. ويخاطب القرآن المجتمعين المذكورين قائلا فَان تَولَوا فَقولوا اشهَدوا بِأنا مُسلِمون. ويوضح عبده أن هذه الآية توصي بأن من يعبدون الإله الحق عليهم أن لا يستأنسوا برأي أي أحد غير

(٣٤) القران الكريم: (٩: ٣٠).
(٣٥) الزمخشري، الكشاف، ١: ٣٧١.
(٣٦) ولد محمد عبده في الريف المصري في العام ١٨٥٠(١٨٤٩). درس في طنطا في العام ١٨٦٢، وفي العام ١٨٦٥ أصبح مولعاً بالتصوف، أطلعه عمه الشيخ درويش على الجماعة الشاذلية، في العام ١٨٦٦ استمر في دراسته في جامعة الأزهر، وأكملها في العام ١٨٧٧، انظر J. J. G Jansen، تفسير القران في مصر الجديدة، ١٩٧٤.
(٣٧) ألف تفسير المنار عالمان هما محمد عبدو (الأستاذ) ورشيد رضا (الطالب).
(٣٨) وإن الآية ألا نَعبُدَ إلا الله التي فهمت بأنها وحدانية الإلوهية جاءت مستقلة عن آية وَلا نُشرِكُ بِه شَيئا، انظر رشيد رضا تفسير القران الحكيم المسمى بتفسير المنار، المجلد ١٢ في ٦ + الملحق، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٢، ٣: ٢٦٨.
(٣٩) الآية وَلا يَتخِذ بَعضُنا بعضاً أرباباً مِن دونِ الله. انظر محمد عبدو، المنار، ٣: ٢٦٩.
(٤٠) محمد عبدو، تفسير المنار، ٣: ٢٧٠.

معصوم من إرتكاب المعصية. ويفضل الطباطبائي[٤١] تطبيق هذه الآية على أهل الكتاب عموما وفهم الخطاب العام «الكتاب» أن الآية يا أهل الكتاب تعني أنهم موضوع الخطاب[٤٢]. ويفسر الآية «تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم» بأنها دعوة إلى الاتفاق المشترك الذي يتعاون بمقتضاه البشر فيما بينهم ويتوصلون إلى فِهْم ما تعنيه كلمة «تعالوا» «فان تولوا». ويجادل بأن القرآن والتوراة والإنجيل تتفق جميعاً على «كلمة سواء» وهي الكلمة التي تصف الوحدانية[٤٣].

يعتقد الطبري أن توكيد الوحدانية بدوره يتطلب رفض إشراك أي شيء بالله الحق، ورفض عبادة ما دونه، علاوة على ذلك أن الآية «لا نعبد إلا الله » تنفي عبادة أي مخلوق غير الله، وبذلك تؤكد بشكل ضمني عبادة الله. وهذا يشبه الشهادة التي تصر على انه ليس هناك رب غير الله، لان ذلك لا يجعل من الضرورة بمكان توكيد وجود الله لان القرآن أكد ذلك[٤٤].

من هنا يمكن رؤية أن القران يتوسع في إعطاء تعريف عقدي للتوحيد، ويقدم دعوة واضحة وصادقة لأهل الكتاب للرجوع إلى التعاليم الأصلية لكتابهم المقدس، أي إلى التوحيد الخالص الذي يشتمل على عبادة الله الواحد والمطلق، وعلى أن لا تنسب القدسية إلى أحد غيره، وعلى عدم القبول بأي مخلوق آخر كي يكون إلهاً.

(٤١) عاش العلامة الطباطبائي للمدة من ١٩٠٣ م الى١٩٨١م في تبريز، وكان احد مفسري القران البارزين واحد الفلاسفة المسلمين التقليديين في القرن العشرين، من أهم أعماله الميزان في تفسير القران، ويقع هذا العمل في عشرين مجلداً (بيروت: مؤسسة الاعلمي، المطبوع في ١٣٩٤/ ١٩٧٤). وهو يعلق عادةً على آية قرآنية محددة عبر الاستعانة بآيات قرآنية أخرى آخذا بنظر الاعتبار التعليقات القرآنية المعاصرة والقديمة، انظر سيد حسين نصر، "الطباطبائي، محمد حسين". موسوعة اوكسفورد للعالم الإسلامي المعاصر (اوكسفورد: مطبعة جامعة اوكسفورد، ١٩٥٥) ٤: ١٦١ -١٦٢.

(٤٢) الميزان في تفسير القران للطباطبائي، ٣: ٢٤٦.

(٤٣) الميزان في تفسير القران للطباطبائي، ٣: ٢٤٧.

(٤٤) الميزان في تفسير القران للطباطبائي، ٣: ٢٤٧

خلاصة مذهب التوحيد في الأديان الموحدة الثلاثة:

إن مذهب التوحيد في الأديان الثلاثة، التي تعدّ أنفسها «موحدة» وهي اليهودية، والمسيحية والإسلام قد عُرفَ بشكل مختلف في التوراة، والإنجيل، والقران:

١. **التوحيد في التوراة:**

تطورت فكرة التوحيد في الكتاب المقدس لدى اليهود التوراة إلى نقطة محددة لكنها لم تفقد هويتها القومية المميزة، وطبقاً لهذه الفكرة، فان الرب له علاقة خاصة مع شعب إسرائيل (شعب الله المختار)، وأن رسالته قد أُرسِلت لهذا الشعب وحده، وأن رسله أُسندوا ليكونوا من بينهم، وأن رب إسرائيل هو إله قومي يدين له كل إسرائيلي بالولاء. وقد قدمت التوراة وللأبد فكرة التوحيد بشكل موازٍ لفكرة عبادة الرب الواحد، بمعنى أن عبادة إله واحد، مع الاعتقاد بوجود آلهة أخرى، مثل الأصنام التي كانت آلهة لشعوب وقبائل غير شعب إسرائيل. وعلى ما يبدو، أن التوراة قد فشلت في مناقشة فكرة التوحيد بشكل واضح وصريح، وفي رفضها الآلهة الأخرى.

٢. **التوحيد في الإنجيل:**

ارتقت فكرة الإله في الإنجيل مرتبة واحدة أعلى منها في التوراة، في أنها كانت قادرة على صياغة مفهوم الهوية القومية المميزة من فكرة التوحيد، وقد طرح أتباع النبي عيسى عليه السلام فكرة الإله بصفة السيد للبشر والعالم أجمع. ولكن هؤلاء الأتباع لم يخرجوا بتلك الفكرة إلى ما يخرج عن إحساس العقل البشري، وقد قام هذا الشعور ببناء الإحساس بين الإله ومخلوقاته كالذي بين الأب وأطفاله، لذلك نرى كثيراً من الأناجيل يعرّفون البشر بأنهم أبناء الله.

لذلك، فان فكرة التوحيد في المسيحية ضعفت حينما قبل مناصروها فكرة الثالوث خلاصة لإيمانهم. وان الله، عبر السيد المسيح الذي ضحى بنفسه للعالم، وبقوة الروح القدس قد غير البشرية وأضفى عليها القدسية. وبشكل عام فان الله ينظر إليه بأنه خلق البشرية لتتحد معه.

٣. التوحيد في القرآن:

يحدد القرآن فكرة التوحيد في موقع أكثر وضوحاً، وشمولية، وسمواً، وأمانة من أجل حصر جميع القوى في يده، وتحت سيطرته، وقد جرَد القرآن هذه الفكرة من طبيعة الأبوية وجميع العلاقات المادية الأخرى مع المخلوقات وبإحساس مطلق، إن الله لا يشبه حتى الشخص الأسمى على وجه الأرض، فهو الإله الواحد، القوي المطلق، تعالى عن هذه الأشياء، وأن النبي محمدﷺ، الرسول الأقدس لله يقف بين يدي عظمة الله عبداً متواضعاً يتلقى أوامره، حتى في أثناء خضوعه لربه إذ يقول القرآن:

﴿ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾(٤٥).

لذا كان القرآن الكتاب الوحيد الذي عمم فكرة التوحيد والذي تحدث بصراحة بأنه لا إله إلا الله.

﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴾(٤٦).

إن عظمة الله وجلاله، وخيره، وحكمته قد أستُدِلَ عليها ببعض الأمثلة، لذا من الحماقة بمكان البحث، أو عبادة أي قوة أخرى غير الله. إذ إن ذلك يلقي بالإنسان في الطريق الخطأ، ويأخذه بعيدا جدا عن الحقيقة، لذا لا يمكن رؤية أوضح، وأفصح من التوحيد في القرآن عنه في الكتابين الآخرين.

الإستنتاج:

قدم فكرة التوحيد ابتداءً النبي إبراهيمؑ (٢٤٠٠ قبل الميلاد). وتتفق الأديان الثلاثة (اليهودية، والمسيحية، والإسلام) على أن النبي إبراهيم قد شَرَعَ بحركةٍ للوقوف ضد الوثنية. طرحت اليهودية فكرة الإله الواحد ولكن هناك إشارات مختلفة تنسب الصفات البشرية إلى الله، ومن أمثلتها إمكانية رؤية ظهره... الخ. في الزمن القديم كانت المعابد اليهودية مزخرفة بالرسوم الجدارية الأخلاقية التي تصف القصص، وأحد هذه الرسوم في أحد المعابد القديمة تصور

(٤٥) (٣٩: ١١ القران الكريم).

(٤٦) (القران).

يونس وقد بلعته الحوت. وان التشبيه المستعمل لشرح فكرة الإله جعل الله يبدو رجلاً كبير السن، بحجم ضخم. فضلا عن ذلك فان أتباع الدين اليهودي ليس بالضرورة أن يكونوا قد استوعبوا مهمة النبي موسى عليه السلام.

أما في المسيحية، فقد تراجع أتباعها خطوة إلى الوراء، حينما عُدّ المسيح هو الله، عبر اله في السماء، وآخر في الأرض، وأن فكرة الثالوث قد اختُرِعَت لحسم الخلاف في ذلك، وقد أفضت جميعها إلى الإعتقاد بأن المسيح هو ابن الله. إن رسالة عيسى قد فُقدت. وكان على الدين التعاطي مع مشكلات اجتماعية خاصة جداً (الاستبداد الروماني)، كما أن الهدف من التوحيد قد أُهمِل. وقد نحتت تماثيل مريم وعيسى، وبذلك دعمت المسيحية شكلا من أشكال الوثنية بدلا عن تحطيمها، والذي كان ذلك من أهم أهدافها.

عندما جاء الإسلام كان هدفه الرئيس وما يزال الدعوة إلى التوحيد. وأن جميع التدابير قد اتخذت كي لا يساق أتباعه بعيدا عن النهج القويم للتوحيد، وأن أي تشبيه مشكوك فيه لشخصنه الله ممنوع. وأن فكرة الإله تتحقق وتتشكل عبر الخواص والصفات المميزة التي جاءت في القرآن الكريم وأوجزت في سورة الفاتحة.

بعد مجيء الإسلام حاول كل دين أن يُعّدلَ تعاليمه من أجل الاندماج في بوتقة التوحيد الإسلامي، عادةً عبر تجريد الخواص الإنسانية التي أضفوها على الله. ونحن نتحفظ عن التعليق على نجاحهم.

المصادر

١. ابن عباس (٦١٩ -٦٨٨ م)، تنوير المقباس من تفسير ابن عباس، بيروت، دار الكتب العلمية.
٢. الآملي، جوادي، التوحيد في القرآن، بيروت، دار الصفوة، ١٩٩٤.
٣. الزمخشري، أبوالقاسم محمد بن عمر، الكشّاف عن غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التنزيل.
٤. شبلي، محمد، حياة المسيح عليه السلام، بيروت، دار الجيل، ١٩٩٨.
٥. الصالح، صبحي، نهج البلاغة للإمام علي عليه السلام.

٦. الصدر، محمد باقر (ت ١٩٨٠)، التفسر الموضوعي للقرآن، بيروت، دار الأندلس.
٧. الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (٨٣٩ - م)، جامع البيان في تفسير آي القرآن.
٨. الطوسي، ابو جعفر محمد بن الحسن بن علي (٣٨٥ -٤٦٠هـ)، البيات في تفسير القرآن، النجف الأشرف، المطبعة العلمية، ١٩٥٧.
٩. عبده، شيخ محمد، رشيد رضا، تفسير المنار، القاهرة، الهيأة العامة المصرية للكتاب، ١٩٧٢.
١٠. نصر، سيد حسين، محمد حسين الطباطبائي، موسوعة إسكسفورد للعالم الإسلامي الحديث، إسكفورد، مطبعة جامعة إكسفورد، بريطانيا، ١٩٥٥.
١١. نهج البلاغة، المختار من كلام أمير المؤمنين عليه السلام، لجامعة الشريف الرضي محمد بن الحسين بن موسى (ت٤٠٦هـ)، تحقيق السيد هاشم الميلاني، الناشر: العتبة العلوية المقدسة، النجف الأشرف -العراق، ٢٠١١ م.
١٢. يوسف بقاعي، شرح مقامات الزمخشري، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٩٨١.
13. Andrew Rippin، "Al-Zamakhshari"، The Encyclopaedia of Religion
14. B. N. MacGuckin De Slane، trans. Ibn Khallikan's Biographical
15. Dictionary، Paris، Oriental Translation Fund of Great Britain and Ireland.
16. Encyclopedia of Religious and Ethics، 1968.
17. Encyclopaedin، USA1968
18. Enid B. Mellor، The making of the Old Testament University Press، Cambridge1972،